الأنانية القومية

بقلم الأستاذ أحمد محمد فهمى
مدرس بمدرسة الزراعة العليا

لا جدال فى أن الأمم السائدة اليوم فى أوربا وأمريكا ، لم تبلغ ما بلغته من الرقى والعظمة والسيادة إلا بالاعتداد بنفسها والاحتفاظ بقوميتها ، حتى إنك لتعاشر الواحد من أبناء هذه الأمم فتجده مثال اللباقة وسهولة الخلق ولين الجانب والتسامح ، حتى إذا ذكرت الأوطان فى مجلس ـ ولو كان من مجالس اللهو أو الشراب ـ تراه يجاهر غير ما هياب بأن وطنه فوق جميع الأوطان ، وأنه نسيج وحده ولو أغضب قوله رفاقه وخلانه ، ذلك لأنهم يغرسون فى قلوب النشء أن وطنهم أحق الأوطان بالسيادة وأجدرها بالحكم وأنهم خلقوا ليسودوا الأمم ويقودوها ، وأنهم جبلوا ليسيروا فى مقدمة مواكب المدنية والحضارة .

تلك هى الأنانية القومية والنعرة الوطنية التى أقصدها فى هذا المقال ، والتى أراها ليست معدومة فى بلادنا فحسب ، ولكنها تحارب فيها حرباً عواناً حتى من الموكلين بتهذيب النفوس وتقويم الأخلاق .

إن الذى يريد أن يحض الشعب المصرى على التمسك بهذه الأنانية القومية ليجد فى القول مقصداً ، فمصر بلاد العجائب ومشرق شمس المدنية التى تنتظر إليها اليوم ، كما ينظر الأعشى إلى ضوء القمر ، وهى هى التى حملت مصباح العلم فى فجر التاريخ فأضاءت به دياجير الجهالة ، فسار وراءها اليونان ثم الرومان ثم العرب ؛ وعن هؤلاء أخذت أوربا مدنيتها الحاضرة ، فكل قول مهما بولغ فيه فهو دون قدرنا وتحت إخمصنا ، ولنا من آثارنا الخالدة ألف دليل على صدق قولنا إذا أحوجتنا الحال إلى دليل أو برهان ، غير أننا والأسف ملء قلوبنا نرى أن الأكثرية منا يتبرمون من وطنيتهم كأنها قذى فى عيونهم ، ويمارون للبعد عن جنسيتهم كأنها شجا فى حلوقهم ، فلا تسمع إلا منتسباً للعرب يتغنى بمدحهم ويفتخر بأن أجداده من العرب الفاتحين ، وأنه يترفع أن يكون من هؤلاء المصريين المغلوبين ، ولا ترى متصلا بسبب مع الترك إلا يشيد بذكرهم ويسبح بحمدهم ، ويفتخر بأنه من دمهم ولحمهم ، ويتعالى من أن يكون من طينة المصريين الفلاحين ، وأدهى من ذلك وأمر أنك تجد الكثيرين من الأعيان قد اتخذ من بعض الدول الأوروبية ـ حتى الصغيرة منها ـ حماية ، فاذا جادلته فى أمر كانت هذه الحماية لسانه الناطق ، وسيفه القاطع ، وعجنه الذى يتقى به فى بلادنا المنكودة عوادى الدهر ، وحادثات الزمان . فهل أيت أبلغ من كل هذا فى محاربة الأنانية الوطنية ، والنعرة القومية ؟ وعن بلغت أمة ما بلغته

لامة المصرية من التهاون فى أمر قوميتها ، والارتماء بين أحضان الترك والعرب وغيرهم من الامم الغربية ؟ . سر فى أى شارع من شوارع القاهرة أو الأقاليم ، فلن تسمع إلا أمثال هذه العبارات (إحنا مصريين ماننفعش)، (احنا نستحق أكتر من كده) وغيرها، التى إن دلت على شيء ، فلا تدل إلا على أننا غير راضين عن أنفسنا ، وعلى مبلغ تهاوننا فى قوميتنا واحتقارنا لكياننا ووجودنا ونسياننا لقول زعيم كبير من زعمائنا « لو لم أكن مصرياً ، لوددت أن أكون مصرياً » .

نرى الانكليزى مثلا يدخل إلى أى مخزن من المخازن التجارية فيسأل عن الأصناف الانجليزية ويشتريها ، ولا يريد بها بديلا ولو غلا ثمنها ، وكانت أقل جودة من البضاعة الفرنسية مثلا . فاذا لم يجدها بحث عنها حتى يجدها ، فيضيع وقته وماله فى تشجيع بضاعته الوطنية ، وليس ذلك منه إلا أثراً من آثار الأنانية الوطنية التى رضعها مع اللبن ، يقابل ذلك عندنا افتخار ناشئتنا بأن هذا الحذاء من (راءول) وهذه الكسوة من عند (دافيز براين) ، وأن هذه المقاعد صنعت فى باريس ، حتى ليفخرون بأنه أحضروا الأحجار من إيطاليا .

فهل لهذا الداء العياء من دواء ؟ حقاً إنه لمرض قديم ظهرت أعراضه فى جميع طبقات الأمة ، وتفشى بين الأفراد والجماعات ، فلم يسلم منه إلا القليل النادر . ولقد كان أملنا الوحيد فى شفاء هذا الداء معقوداً على البعثات التى ترسل إلى بلاد أوربا حيث الثمرة القومية فى أجل مظاهرها ، والأنانية الوطنية بأبهى معانيها ، ولكنهم ازدادوا بالإقامة فى بلاد الغربة بعداً عن وطنهم ، فعادوا إليه بأجسامهم ، أما أرواحهم وأما قلوبهم وأما ميولهم فقد تركوها فى تلك البلاد التى ملكت عليهم أفئدتهم، وبهرهم رواء مدنيتها ، وبريق حضارتها ، حتى إنهم كادوا ينسون لغتهم ، فاذا تكلم بها متكلم منهم مزجها بالرطانة الأعجمية ، وحشاها بالكلمات الافرنجية ، ونسى أو تناسى أنه ماذهب إلى البلاد الأوروبية، إلا لينقل عنهم ، ويعلم أبناء وطنه ماينفعهم من علوم القوم وأخلاقهم، لا ليتشبه بهم ، ويفنى فيهم، وتتلاشى قوميته فى قوميتهم . كنا نود منهم وقد عاشروا القوم، وعرفوا مقدار اعتدادهم بأنفسهم ، وتفاخرهم بوطنيتهم ، أن يقلدوهم فى ذلك ، وأن يكونوا قدوة حسنة فيه لمواطنيهم ؛ ولكنا نراهم مع الأسف الشديد لا يقيمون وزناً لشيء مصرى ، حتى إنهم ليشمخون بأنوفهم كبراً على إخوانهم وذوى قرباهم .

إن علاج هذا الداء القوى قد يتطلب وقتاً طويلا ، ربما امتد إلى ربع قرن ، أو أكثر ؛ ولكن ربع القرن أو نصفه ليس زمناً طويلا فى حياة الامم ، وذلك لا يكون إلا بأربعة أمور :

الأول : أن يدرس تاريخ مصر فى المدارس الابتدائية والثانوية بوضوح وجلاء ، لا كما يدرس الآن موضوعات تافهة ، لا صلة بينها ولا ارتباط . وأن تبذل المكافآت الكبيرة لمن يضع أحسن التآليف فى التاريخ المصرى القديم والحديث .

الثانى : أن تقرر زيارة الآثار المصرية جميعها على جميع التلاميذ فى المدارس الثانوية، وأن يرافقهم فى الزيارة علماء الآثار، ليشرحوا لهم أسرارها، ويبينوا لهم سر عظمتها، وليغرسوا فى نفوسهم أن بناة هذه الآثار هم أجدادهم العظام الذين دوخوا الممالك وامتلكوا الأقاليم، وأقلّ عنهم السفائن التجارية، والأساطيل الحربية قديماً، وهزم جيشهم الانكليز والفرنسيين والأتراك والعرب فى كثير من المواقع الحربية فى التاريخ الحديث.

الثالث : بث الروح الوطنية، والنعرة القومية، فى نفس الشعب بواسطة الخطباء، والوعاظ فى المساجد والكنائس، وفى نفوس الناشئة بواسطة المدرسين والمعلمات، وعرض المناظر التمثيلية للآثار بواسطة السينما، إلى غير ذلك من وسائل النشر والإعلان.

رابعاً : عمل نشيد وطنى يشاد فيه بذكر الآباء والجدود، وأن يوقع على الموسيقى ويكلف بحفظه عامة الشعب، فينشده فى كل زمان ومكان كالمارسليز عند الفرنسيين، والمانيا فوق الجميع عند الألمان.

أحمد محمد فهمى

كلوبشتوك

[بقية المنشور على الصفحة رقم ٨٥٠]

المتشددين فيها، مع أن هذه الملحمة لم يعرفها تاريخ ألمانيا قط، ويغلب على ما سبه أن تكون موسومة بالطابع المثالى، وأن تكون ملأى بالعواطف، ولو أنه لم يصور لنا أخلاق فرد ما، ويظهر أن أغانى (الأوسيان) الاسكوتلاندية الغالية القديمة، هى التى عنى جيمس (ماكفرسون) بنقلها إلى الانجليزية منذ سنة ١٧٦٠ حتى سنة ١٧٦٥، وأخرجها للناس فى لغة عامية يفهمونها، وجاء من الألمان من نقلها ونشرها بين قومه، وكان بدء ذلك سنة ١٧٦٤ أعنى فى نفس الوقت تقريباً حين ظهورها بالانجليزية.

ونذكر من رسائل كلوبشتوك النثرية (جمهورية العلماء الألمان) التى نشرها سنة ١٧٧٤، وقد ذكر فيها آراءه فى اللغة والأدب، وقد دافع فيها عن اللغة الألمانية، وكان كثير من علماء ذلك العصر يتحاملون عليها ويحطون من قدرها.

وقد كانت خدمات كلوبشتوك للغة الألمانيــة كثيرة جليلة، وجعل للشعراء لغة سهلة لينــة، لها قوة فى التعبير، وتراه قد خلق عدة ألفاظ جديدة، وفك نفســه من قيود ترتيب الكلمات، وتأخير أو تقديم فى الجمل، وكثيراً ما حاول أن يبالغ القصر والإقلال، فكانت نتيجة ذلك كله أن جعل آثاره القلبية غير واضحة صعبة الادراك.

علي مظهر